خطبة صلاة الجمعة 2/10/2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(يُثبِتُ الله الذين آمنوا)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

قال ابن كثير: يهدي إلى الرُّشد أي يهدي إلى السَّداد والنَّجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10].

قال المفسرون: معنى قوله: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق، والرَّشَد والرُّشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ✕: «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّ إِلاَّ نَفْسَهُ وَلاَ يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثامنة والعشرون في سلسلة (دليل إرشادي)، تتناول كلُّ خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منَّا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتُقدِّم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى، تعينه على رؤية الطريق وتُمكِّنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزةً تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة، لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذ الاختلاف بين البشر سنة والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(يُثبِتُ الله الذين آمنوا)**

المسألة:

أخاف على قلبي الزيغ بعد الهدى، وعلى نفسي التفلت بعد الانضباط، أرى البلاء يضرب أطنابه والفقر يغرز نابه، تمور الفتن حولي وتعصف الشهوات بي، ولئن وجدت على الثبات معيناً فإنني أجد على التفلت أعواناً، بالأمس كان لي صاحب محافظاً على واجباته الدينية والخُلُقية كلِّها ولكنه اليوم في شِق آخر ترك فيه أمر الله واتبع ما يملي عليه هواه، ولما نزلت بقريبي القِلةُ والحاجة نسي ما كان يدعو إليه من قبل وأصبح من القانطين، بينما يثبت على الخير في ظل هذا البلاء آخرون من أصحابي، ويزداد إيماناً آخرون من معارفي، فكيف للمرء الثباتُ في الأمر والعزيمةُ على الرشد، أرشدوني.

الدليل الإرشادي:

في صحيح مسلم: مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لاَ تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لاَ. قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ. فَغَضِبَ، وَقَالَ: تَرَكْتِنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي!. فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا**».

وفي رواية البخاري: قال رجلٌ من الأَنصار: (فرأيتُ لهما تسعةَ أولادٍ، كلُّهم قد قرأ القرآنَ).

تُرى، كيف ثبتتْ هذه الأمُّ في شدةٍ تتزلزلُ فيه كثيراتٌ؟!.

في الدليل الإرشادي أربعة أمور تثبّت الإيمان وتربط على الجَنَان في وقت الشِّدَّة والعسرة.

الأمر الأول: تلاوة القرآن الكريم وتدبّره والعمل بما فيه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: 32].

بُعِثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في قومٍ جفاة، شديدةٍ عداوتُهم، لا يكادون ينتهون من حملة أو مكيدة حتى يشرعوا في تدبير أخرى مثلِها أو أشدّ أو أمرّ، فكانت تنزُّلات القرآن بين الفينة والأخرى

تواسيه وتثبّته وتشدُّ أزره وعزيمته؛ لما فيها من تجديد الاتّصال بالملأ الأعلى كلَّما ادْلَهَمَّ الأمر أو اشتد الخَطب، ولما فيها من تعليمٍ وإرشاد.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: 77] ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 48-49] ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

فالقرآنُ الكريم عامل ثباتٍ؛ لأن المؤمن يرجع إليه عند الشدة فيقرأُ فيه: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7]، فتسكنُ نفسُه المتألمةُ من العسر، وتطمئن لليسر القادم.

يرى الباطل في انتفاخ وأهلَه كالزبد في ارتفاع فيقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196-197]، فيهدأُ اضطرابه ويرتاح للعاقبة.

يشعر في التزامه بتعاليم الدين بالغربة بين أقرانه فيقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، فيفرح لأنه من القليل الصالح.

فيُثبِّتُ القرآنُ المؤمن، وتنزل آياته برداً وسلاماً على قلبه، فتهدأ به رياحُ الفتنة العاصفة وتسكن به نيران الشهوة الجارفة.

تُرى، ما أثر قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]، على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما قال المشركون: ودَّع محمداً ربُّه...؟!.

ما أثر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور: 11]، على نفس السيدة عائشة لما أشاع المنافقون عنها ما أشاعوا؟!.

أليس تثبيتاً على تثبيتٍ، وربطاً على القلوبِ المؤمنة، ورداً على الشبهات، وإسكاتاً لأهل الباطل...؟.

ثم إني لأتخيَّل حالَ الصحابة الكرام عندما سمعوا البيانَ الإلهي يقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، أتخيلهم يطيرون من الفرح لسماعهم رضى الله تعالى عليهم، فيزدادون ثباتاً على الحق وتضحيةً في سبيله، وتصميماً على متابعة السير على الصراط المستقيم.

فأوَّل ما يثبت الإيمان ويربط على الجَنان في الأزمات: تدبُّر القرآن الكريم وتلاوته والعمل بما فيه.

الأمر الثاني: قراءة السِّيرة وقَصصِ الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]. قال ابن جريج: (نثبّت به فؤادك: أي نصبّر قلبك حتى لا تجزع).

ففي قصص الرُّسل تقرأ الأزمات التي وقعوا فيها والكربات التي أحاطَت بهم، والشدائد التي لحقتهم، فصبروا وثبتوا ورضوا وأعدّوا لكل وقتٍ عدَّته، فنصرهم الله وجعل العاقبة للحق وأهله والخذلانَ على البغي وأهله.

رميَ إبراهيمُ عليه السلام في نار النمرود، ورميَ يوسفُ عليه السلام في جبِّ إخوته، ورمي موسى في التابوت.

ظلَم قومُ صالح وبغى قوم شعيب وضل قوم لوط ... فكان ماذا؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: 66-68].

ونقرأ في السيرة النبوية الشريفة ثلاثةً وعشرين عاماً من حياة الدعوة أزماتٍ وشدائدَ وهزات، والنبي صلى الله عليه وسلم صابر مرابط ثابت، فكان ماذا؟!.

صدَق الله وعدَه، ونصَر عبدَه، وأعزَّ جندَه، وهزم الأحزاب وحدَه.

ثاني ما يثبِّت الإيمان ويربط على الجنان في الأزمات: قراءة السِّيرة وقصص الأنبياء.

الأمر الثالث: العمل بالعلم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 66-68].

فأَنْ تعمل بما تعلم من الخير، بابٌ عريض للثَّبات في الأزمات:

أنْ تعين الخلق بإطعام الطعام وبذلِ السلام وصلة الأرحام.

أنْ تواسي المصاب وتشدّ أزر المبتلى وتفكّ العاني وتيسر على المعسر.

أنْ تحضّ على الصَّدقات، وتشفع عند ذوي الوجاهات، وتقضي للناس الحاجات.

إنَّ هذا العمل بما تعلم من الخير يسهّل ويهوّن المصيبة، ويثبّت قلبك وجنانك.

بل إن أهل الإرشاد والطب النفسي اليوم يُجمِعون على أن واحداً من المعِينات على الخروج من الصَّدمة النفسية دعوةُ المصاب إلى العمل والحركة والانخراط ثانية في المجتمع ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66].

ثالث ما يثبت الإيمان ويربط على الجنان في الأزمات: العمل بالعلم.

الأمر الرابع الأخير: اللَّجأ إلى الله بالدعاء والضراعة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 74]. فالمثبّت هو الله، والمعين هو الله، والمؤيّد هو الله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

أخرج الترمذي عن شَهْرِ بنِ حَوْشَب قال: قلتُ لأُمِّ سلمة رضي الله عنها: يا أُمَّ المؤمنين، ما كان أَكْثرُ دُعاءِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذَا كان عندكِ؟ قالت: كان أَكثرُ دُعَائه: «**يا مُقَلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّت قَلْبي على دينك**».

وأخرج النسائي عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي صَلاَتِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً، وَلِسَاناً صَادِقاً، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ**».

فمن توكل على الله كفاه، ومن اعتصم به نجاه، ومن استعان به هداه، ومن رغب إليه آواه، ومن ناداه أجاب نداه.

ختاماً – أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأمثاله، في الأزمات تزيغ قلوب أقوام وتزول أحلام أقوام وتتزلزل عقائد أقوام. ولكن بالمقابل: يربط الله على قلوب أقوام فيزدادون إيماناً مع إيمانهم، وثباتاً إلى ثباتهم، وتسليماً على تسليمهم.

وهذه أمور أربعة تثبِّت الإيمان وتربط على الجنان في وقت الشدَّة والعُسرة: تلاوة القرآن الكريم وتدبره والعمل بما. وقراءة السيرة وقصص الأنبياء. والعمل بالعلم. واللَّجأ إلى الله بالدعاء والضراعة. والله أعلم.

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**».

والحمد لله رب العالمين